الفصل الثالث

الطفل كجهاز حي سالك

أحب الآن أن أواصل وصف عجائب وغرائب تيار الوعى بأن أسأل عما اذا كنا نستطيع بأية طريقة معقولة مفهومة أن نخصص وظائفه ونعينها.

فلتيار الوعى وظيفتان واضحتان :

فهو يؤدى الى المعرفة .

وهو يفضى الى السلوك .

هل نستطيع أن نقول أى هاتين الوظيفتين أكثر ضرورة ؟

هنا نجد تشعبا تاريخيا قديما فى الرأى .

فالاعتقاد السائد جنح دائما الى تقدير قيمة العمليات العقلية للرجل بالقياس الى نتائجها على حياته العملية ، ولكن الفلاسفة حرصوا دائما على الاعتزاز بوجهة نظر مخالفة لذلك . فقد نادوا بأن « عظمة الانسان فى أسمى مراتبها هى كونه كائنا عاقلا ناطقا عارفا بالحقيقة المطلقة الخالدة السرمدية ، ولذلك فان استخدامه لعقله فى الشئون العملية يعد من الأمور الثانوية ».

« فالحياة النظرية هى مناط اهتمام روحه والركيزة الأصيلة لها » .

ولا يوجد شىء أكثر اختلافا فى نتائجه بالقياس الى موقفنا الشخصى من أن ننتمى الى هذا الجانب أو ذاك من وجهتى النظر هاتين بحيث نصبح من أنصار المثل الأعلى العملى ، أو المثل الأعلى النظرى . وفى حالة الأخذ بوجهة النظر الأخيرة — المثل الأعلى النظرى — فان التجريد من الانفعالات

والشهوات والانسحاب من غمار الكفاح فى الشئون الانسانية لا نصفح عنه ونغتفر فحسب ، ولكنه يصبح خليقا بالمدح . وكل ما يصطنع الهدوء والتأمل يعتبر مواتيا للكمال الانسانى فى أسمى مراتبه .

أما فى حالة الأخذ بوجهة النظر الأولى : المثل الأعلى العملى — فان رجل التأمل سيعامل كما لو كان نصف إنسان ، والشهوة وشدة الانفعال والقدرة العملية ستصبح مرة أخرى المثل العليا للعظمة فى جنسنا والانتصار الملموس على قوى الظلام الظاهرة لكوكبنا ستبدو لنا مساوية لأية كمية من الثقافة الروحية السليمة وسيبقى السلوك العملى هو محك كل تربية جديرة بهذه التسمية .

إنه من المستحيل علينا أن نخفى حقيقة أن مركز الثقل فى علم النفس المعاصر لأيامنا نحن قد انتقل من وظيفة العقل العقلية البحت — حيث وصفها أفلاطون وأرسطو ومن تبعهما من أصحاب المنهاج الكلاسيكى التقليدى فى الفلسفة — الى ذلك الجانب العملى الذى طال أمد إغفاله . والمسئول الرئيسى عن ذلك هو نظرية التطور . فالانسان — ولدينا الآن من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بذلك — قد تطور من أسلاف على أسفل سلم التدرج البشرى حيث انعدم فيهم أو كاد التفكير المجرد — ان كان ثمة تفكير مطلقا فيها — وكانت عقولها تقتصر وظائفها على مجرد كونها أعضاء لملاءمة حركاتها للمؤثرات الواردة من البيئة لكى تتلافى مغبة الانقراض أو الفناء .

فالوعى يبدو لأول وهلة كما لو كان لا شيء سوى نوع من الاكتمال البيولوجى المضاف للكائن الحى — وهى إضافة لا فائدة منها مالم تفض الى سلوك نافع ، بل ولا يمكن تفسيرها معزولة عن هذا الاعتبار : إن فى أعماق طبيعتنا ما زالت تكمن الأسس البيولوجية لوعينا غير مستورة

وبلا نقصان — هنا توجد أحاسيسنا لكى تجذبنا أو تصدنا — وذكرياتنا لكى تحذرنا أو تشجعنا ، ومشاعرنا لكى تحرضنا ، وأفكارنا لكى تضبط سلوكنا وتحتجزه ، وذلك لكى نزدهر بصفة عامة ونطيل أيامنا على الأرض .

ومهما حملنا فى بواطننا من بصيرة ميتافيزيقية تتجاوز حدودنا الدنيوية أو إدراك جمالى لا سبيل الى تطبيقه عمليا ، أو عاطفة خلقية — فقد تعد فى هذا المنسوب مجرد جـزء فحسب من الطفح الوظيفى العرضى الذى يصاحب بالضرورة عمل أية آلة معقدة التركيب .

لذلك سأطلب منكم — غير قاصد بذلك إغلاق المسألة النظرية — ولكن لأنه يبدو أنها وجهة النظر المواتية لكى نجلب أعظم النفع لكم كمعلمين — أن تتبنوا معى فى هذه المحاضرات المفهوم البيولوجى السابق ذكره على هذا النحو ، وأن تركزوا اهتمامكم الخاص فى حقيقة أن الانسان — أيا كان وأنى كان — هو أولا وقبل كل شىء كائن عملى قد وهب له عقله لكى يعينه على ملاءمة نفسه لحياة هذا العالم .

اننا فى دراستنا لكل المسائل يتعين علينا أن نبدأ بناحية واحدة عميقة من المسألة ثم نجردها كما لو كانت هى الجانب الوحيد فى الموضوع ثم نصحح أنفسـنا بالتدريج بأن نضيف تلك الجوانب الأخرى المغلقة التى تكمل القضية .

ولا أجد أقوى منى اعتقادا بأن ما تعرفه حواسنا على أنه « هـذا العالم » ليس سوى جزء واحد من البيئة الكلية لعقلنا وموضوعه برمته .

ولكن لكونها الجزء الأولى والأعلى فهى الجزء الحتمى للباقى والذى بدونه لا تكون شيئا مذكورا .

فاذا تثبتم من هذه الحقائق وفهمتموها برسوخ ففى استطاعتكم أن تمضوا قدما وتصعيدا على الآفاق العليا آمنين مطمئنين .

وحيث إن الوقت الذى سنقضيه معا سيكون قصيرا فانني أفضل أن أركز فى الأوليات والأساسيات بعد أن أكون كاملا — لذلك أناشدكم أن تعضوا بالنواجذ على أوجه النظر المفرطة فى البساطة . أما الأسباب التى تحدونى الى أن أعتبرها أساسية الى هذا الحد فمن السهل سردها :

أولا — عندئذ يصبح علم نفس الانسان والحيوان موصولا وأقل تكسيرا أو توقفا . إننى أعلم أن هذا السبب يبدو لبعضكم سببا غير مقبول أو جذاب ، ولكن هناك فريقا سيتقبله بقبول حسن .

ثانيا — إن عمل العقل يتكيف بعمل المخ ويمضى معه متوازيا . ولكن المخ — بالقدر الذى نفهمه — قد أعطى لنا للسلوك العملى .

فكل تيار يسرى فى داخله من الجلد ، أو العين ، أو الأذن ، فهو يخرج ثانية الى العضلات والغدد والأحشاء ويساعد على ملاءمة الكائن الحى للبيئة التى جاء التيار منها .

ولهذا فمما يساعد على تعميم وتبسيط وجهة نظرنا أن نعتبر حياة المخ وحياة العقل ذواتى نوع واحد أساسى من الهدف .

ثالثا — وظائف العقل نفسها التى لا ترجع مباشرة الى البيئة المادية كالعوالم الأخلاقية المثالية ، والرؤى الجمالية ، والبصائر النافذة فى الحقيقة الخالدة ، والاتفاقات المنطقية المتخيلة — هذه كلها لا يمكن أن تصدر عن الفرد الانسانى ويستمر فيها الا اذا كان العقل الذى أنتجها فيه قادرا أيضا على إنتاج منتجات أكثر نفعا من الوجهة العملية .

رابعا — إن المناشط « اللاعملية » التى لا لزوم لها هى نفسها أكثر إرتباطا بسلوكنا ووثيقة الصلة بملاءمتنا للبيئة أكثر بكثير مما تبدو لنا لأول وهلة .

لا توجد حقيقة — مهما تكن مجردة — يمكن إدراكها لا تؤثر فى عملنا الأرضى فى وقت ما .

وينبغى أن تتذكروا أننى عندما أتحدث عن العمل هنا فاننى أعنى العمل فى أوسع معانى الكلمة وأكثرها شمولا . فبالعمل أقصد الكلام والكتابة ، و « نعم » و « لا » والميول نحو الأشياء ، والنأى بعيدا عنها ، والتصميمات الانفعالية . وأنا أقصد كل تلك الأمور بالقياس الى المستقبل مثلما هى بالقياس الى الحاضر .

ففى أثناء حديثى الآن وإنصاتكم لى قد يبدو أنه لا وجود « لعمل » يتبع هذه العملية .

وربما تسمون ذلك عملية نظرية بحتة خالية من النتيجة العملية ، ولكن لابد وأن يكون لها نتيجة عملية ؛ إذ لا يمكن أن يحدث ذلك دون أن تؤثر فى مسلككم ، ان لم يكن اليوم ففى يوم آخر بعيد فى المستقبل عندما تجيبون عن سؤال معين بطريقة مختلفة بسبب ما تفكرون فيه اليوم نتيجة لحديثى معكم .

ولن يقف الأمر عند هذا الحد فان حديثى سيدفع بفريق منكم الى مسالك جديدة من البحث ، وسيحدوهم الى قراءة معينة . وهذه الكتب سوف تطور رأيكم وتؤثر فيه ، إما لها وإما عليها .

وهذا الرأى سيجد بدوره طريقـاً إلى التعبير ، وسيلقى نقدا فى الأوساط التى تعملون فيها ، وسيؤثر فى مكانتكم فى أعين قومكم ومن تعملون معهم أو لهم .

إننا لا نستطيع أن نتلافى مصيرنا — وهو مصير عملى — وحتى أكثر قوانا النظرية تسهم فى تشكيل هذا المصير العملى .

أرجو أن تكون هذه الأسباب القليلة قد مهدت الطريق لكى تتقبلوا اقتراحى ووجهة نظرى .

فكمعلمين — أعتقد باخلاص — أن وجهة النظر هذه تعد مفهوما كافيا لكم لتبنى الظواهر السيكولوچية الفنية التى ستوضع تحت أبصاركم لتفحصوها ، اذا نظرتم اليها من وجهة نظر علاقتها بمستقبل سلوك صاحبها .

وعلى أية حال فهى نظرية كافية كمفهوم أول وكمفهوم أساسى . عليكم اذن أن تعدوا عملكم المهنى كما لو كان يقوم أساسا ويرتكز بالضرورة على تدريب الطالب على السلوك وعلى الأخذ بالسلوك — ليس بالمعنى الضيق لآداب السلوك ولكن بأوسع معانى السلوك الممكنة التى تشمل كل صنوف ردود الأفعال المناسبة الممكنة حيال الظروف التى يجد فيها الطالب نفسه تلقاء تقلبات الحياة . وغالبا ما يكون رد الفعل سلبيا .

فالصمت وعدم الحركة من أهم واجباتنا فى ملاقاة بعض الطوارىء العملية .

« اضبط نفسك ، واستعفف ، واكظم » .

ذلك ما يوصينا به الكتاب المقدس ، ولكن ذلك غالبا ما يحتاج الى مجهود عظيم من قوة الارادة ، واذا نظرنا الى الأمر فسيولوجيا وجدنا أنها وظيفة للعصب مثلما هى أداء حركى فى آن .